انكِسارُ بِنْيةِ المَتْنِ في لُغةِ القرآن الكريم(*)

أنشأَه بالفارسيّة: أ. د. تقي بورنامْداريان
ترجَمَه إلى العربيّة: أ. د. عيسى علي العاكوب(**)

كُلُّ كلامٍ هو مِن جهةِ الاتّصالِ رِسالةٌ إلى مُخاطَب، إلّا إذا كان المتكلِّمُ بسَببِ اضطرابِهِ الرّوحيّ أو الجِسْميّ لَيْسَ لَدَيْهِ تحكُّمٌ إراديٌّ بكلامِه. وبِناءً على ذلك، كلُّ ضَرْبٍ مِن التّكلُّمِ هو مُحادَثةٌ بينَ طَرَفَيْن؛ أحدُهما مُرْسِلُ الرّسالةِ أو متكلِّمٌ، والآخَرُ مُتلقِّي الرّسالةِ أو مُخاطَبٌ. ولازِمةُ المحادَثةِ بَيْنَ

(*) كثيرًا ما يشيرُ الذّكْرُ الحكيمُ إلى ما يُسمّيه تعالى (تَصْريفَ الأمثالِ) في القرآن، الذي يقصِدُ في هذا الكتاب الإلهيّ إلى أن لا يجادلَ الإنسانُ كثيرًا في قَبولِ الحقائقِ الإلهيّة؛ لأنّها مُقدَّمةٌ في القرآن الكريم بأساليبَ متنوِّعةٍ قادرةٍ على إحداثِ الإقناعِ في النّفس. فقد قال ربُّنا سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. ويتناولُ البحثُ المُقدَّمُ هنا ظاهرةَ (التّنوُّع في الوَحْدة) في أساليبِ القرآن الكريم، أو ما يمكنُ تسميتُه في كلامِ البشَر: العُدولَ عن الجاري المُعتاد لِغَرضٍ بلاغيّ. والبحثُ خُلاصةٌ ممتازةٌ في موضوعه. وهو مُقتطَعٌ مِن كتابٍ بالفارسيّة عنوانُه: (در سايهٔ آفتاب – شعر فارسي وساختْ شكنى در شعر مولوى)، بمعنى: (في ظِلال الشَّمْس – الشّعْرُ الفارسيُّ وانكسارُ البِنْيةِ في شعر جلال الدّين الرّوميّ). ومنشئُ البحث، مؤلِّفُ الكتاب، أستاذٌ كبيرٌ الآنَ في جامعة (تربيتِ مدرّس) في طهران، وضَليعٌ بالفارسيّة والعربيّة والإنكليزيّة، وله مصنَّفاتٌ رائعةٌ بالفارسيّة في البلاغة والنّقْد والدّرْس الأدبيّ، واهتمامٌ خاصٌّ بالشّاعِرِ الإنسانيّ العالَميّ جلال الدّين الرّوميّ [المترجم].

(**) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

طَرَفَيْنِ، لَيسَتْ لِزامًا حُضورًا مادّيًّا لِلْمُخاطَب في المحادَثة. وعندَما لا يكونُ المخاطَبُ حاضِرًا، يتكلَّمُ المتكلِّمُ معَ مَخاطَبٍ افتراضيٍّ، ويحدثُ عمَليًّا في هذه الحال أنّ الكلامَ ينتقلُ إلى المخاطَبِ بِطَريقِ الكتابة. ويَعُدُّ باختين (Bakhtin)، المنظِّرُ الرّوسيُّ، كلَّ ضَرْبٍ مِن الاتّصالِ اللّغَويّ ضَرْبًا مِن المحادَثة بِمَعْناها الواسع. والمحادَثةُ، في هذا المفهوم الواسع، لا تُقتصَرُ على الكلامِ المباشِرِ وَجْهًا لِوَجْهٍ بَيْنَ مُرسِلِ الكلامِ ومُتلقّيه، بَلْ كلُّ ضَرْبٍ مِن الكلامِ والكتابة في غِيابِ المخاطَب هو أيضًا ضَرْبٌ مِن المحادَثة. ويعتقِدُ وِدُّسُنْ (Widdowson) أيضًا، مُوافقًا في ذلك قولَ باختين، أنّ الخطابَ الفَرْديَّ في غِيابِ المتكلِّمِ يُشبِهُ أن يكونَ إجاباتٍ مُتواليةً عن أسئلةٍ مُفترضةٍ مِن مُخاطَبٍ افتراضيٍّ.

هَليدي (Halliday) أيضًا، في تأكيدِهِ هذه الرّؤيةَ، يُشيرُ إلى أنّ نَظْمَ الكلامِ وترتيبَه يأخذُ صورتَه بِناءً على الافتراضاتِ القَبْليّةِ لِمُرسِلِ الرّسالة في شأنِ ما يعلَمُهُ مُتلقّي الرّسالة وما لا يَعْلَمُه. فالمحادَثةُ واحِدةٌ مِن الرّكائزِ الأساسيّة لِبِنْيةِ الكلام، سَواءٌ أكان كِتابةً أم تحدُّثًا. وهذا الأصْلُ الأساسيُّ يُراعَى في الكلامِ معَ شخصٍ واحِدٍ، ومعَ شخصَيْنِ أو أكثَر. فالكلامُ كما يقولُ باختين شَبيهٌ بالشَّرارة الكهربائيّة التي يكونُ حُدوثُها مَشْروطًا بوجودِ قُطْبَيْنِ كهربائيَّيْنِ[1].

ووَفْقًا لِما قُلْناهُ، يتحقّقُ كلُّ كلامٍ على أساسِ افتراضِ وجودِ طَرَفَيْنِ: متكلِّم ومُخاطَب، سَواءٌ أكان المتكلِّمُ حاضِرًا أم غائبًا. وعندَما يكونُ المخاطَبُ غائبًا تنتقلُ الرّسالةُ أو الكلامُ إليه بفَضْلِ وَسيطٍ واحِدٍ. ويكونُ هذا الوَسيطُ إمّا إنسانًا تُحمَلُ رسالةُ المتكلِّمِ بوَساطته إلى المخاطَب وتُبلَّغُ

(١) Guy Cook, Discourse and Literature: The interplay of form and mind, Oxford University Press, 1994, p. 48, 50, 51.

شِفاهًا، وإمّا كِتابةً يَفهَمُ المخاطَبُ مِن طريقِها رسالةَ المتكلِّم. وشيءٌ عاديٌّ أنّه عندَما تُفهَمُ الرّسالةُ التي نقلَها وَسيطٌ إنسانيٌّ أو غيرُ إنسانيّ، لا يمكنُ غَضُّ النّظَرِ عن تأثيرِ الوَسيط في الرّسالة، لكنّه لا شأنَ لنا نحنُ هنا بهذه المسألة، التي هي نفسُها واحِدٌ مِن مجالاتِ البحث بينَ عُلَماءِ اللّغة والفلاسفة المعاصرين. كذلك لا حاجةَ لنا إلى مناقشةِ موضوع تأثيرِ عَدَمِ التّحكُّمِ بالكلام في النَّقْلِ الصّحيحِ للرّسالة، عندَما يتكلّمُ المتكلِّمُ في غِياب المخاطَب، ويسمَعُ المخاطَبُ رسالةَ المتكلِّمِ في غيابِهِ أيضًا أو يقرؤها مِن طريقِ وَسيط. ونضَعُ في الاعتبار هنا أيضًا الوَسيطَ في نِطاقِ إنسانٍ أو كتابةٍ، فقط مِن جهة أنّ الكتابةَ هي صُورةٌ مكتوبةٌ لِلْكلام.

وما هو هنا مَحَلُّ تأمُّلِنا هو أنّ وجودَ الوَسيطِ بينَ المتكلِّمِ والمخاطَبِ ينشأ عنه تغييراتٌ في بِنْيةِ المحادَثة وإجرائها لا يمكن أن تحدثَ في المحادَثةِ المباشِرة. وعندَما يكونُ الوَسيطُ بينَ مُرْسِلِ الرّسالةِ ومتلقّيها الكتابةَ ويبقى المتلقّي أمامَ المتْنِ وحيدًا في غياب المرْسِلِ، تُثيرُ مسألةُ التّفهيمِ والتّفاهمِ ومعنَى المَتْنِ أسئلةً كثيرةً، هي نفسُها واحِدٌ مِن المجالاتِ الأساسيّة للبَحْث في فلسفةِ الحَداثة وما بعْدَها ونظريّاتهما، ولَيسَ عَرْضُ هذا مِن شأن هذا البحث، ولا يبدو ضَروريًّا الانشغالُ بذلك في قَصْدِنا المحدود هنا معَ وجودِ كُتُبٍ ومَقالاتٍ أُخَر. لكنّنا ننظُرُ في مسألةِ أنّه، عندَما يكونُ الوَسيطُ بيْنَ مُتلقّي الرّسالةِ ومُرسِلِها إنسانًا آخَرَ، أيُّ تغييرٍ يحدثُ في طريقةِ إيصالِ الرّسالة؟

وإذا ما أشَرْنا إلى مُرْسِلِ الرّسالة بالحَرْفِ «س» وإلى الوَسيط بالحرف «م» وإلى مُتلقّي الرّسالة بالحَرْف «ر»، فسيكونُ لَدَينا الصُّوَرُ الآتيةُ فيما يتعلّقُ بـ (مُرْسِلِ الكلام):

١- يقولُ «س» لِـ «م»: (يا «م») قُلْ لِـ «ر» أن يَحمِلَ الكتابَ لِأَحمد.

٢- يقولُ «س» لِـ «م»: (يا «م») قُلْ لِـ «ر»: (يا «ر») احْمِلِ الكتابَ لِأحمد. الأجزاءُ التي في داخِلِ الأقواس هنا رُبّما لا تظهَرُ، فتَسْتتِرُ داخِلَ الكلام، ويمكنُ المتكلِّمَ والمخاطَبَ أن يُؤدِّياها أو لا يؤدِّياها.

الصُّوَرُ التي يمكنُ الوَسيطَ بطَريقِ بَيانها أن يُوصِلَ رسالةَ المُرْسِل إلى المتلقِّي تأخذُ الحالاتِ الآتية:

١- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») قال «س»: أن تحمِلَ الكتابَ لِأَحمدَ.

٢- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») قال «س»: احْمِلِ الكتابَ لِأَحمدَ.

٣- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») احْمِلِ الكتابَ لِأَحمدَ.

٤- يقولُ «م» لِـ «ر»: (يا «ر») علَيْكَ أن تحمِلَ الكتابَ لِأَحمدَ.

وفي كلِّ واحِدةٍ مِن الصُّوَرِ الأربع التي يستطيعُ الوَسيطُ بها إبلاغَ رسالةِ المرْسِلِ إلى المتلقّي، يمكنُ أن تُضافَ كلماتٌ وعباراتٌ، لكنّ هذه المَزيداتِ هي حَشْوٌ وتُوضَعُ بَيْنَ قوسَيْنِ؛ لِأَنّ إظهارَها أو عَدَمَ إظهارِها لا يُوجِدُ صُورةً خاصّةً. فمِن ذلك مَثَلًا أنّ الوسيطَ يمكنُ أن يقولَ للمُتلقّي: (قال لي «س» أن أقولَ لك...)، ولا تكونَ عبارةُ (أن أقولَ) ضَروريّةً. وهي إن أُدّيَتْ وإن لم تُؤدَّ مُستترةٌ في الكلام. في الصّورتَيْنِ الثّالثةِ والرّابعة، التّعبيرانِ (قال س:) و(قال س أن) حُذِفا مِن البَيْنِ. وهذه الصّورةُ تَظهَرُ عندَما يكونُ المُتلقّي مُنتظِرًا رسالةَ المُرْسِلِ في شأنِ الكتاب، ويكونُ الوَسيطُ مُطَّلِعًا أيضًا على هذا الانتظار.

والآنَ علَينا أن نضَعَ في الحسبانِ عددًا مِن النِّقاط:

١- في الصّورتَيْنِ الأُولَيَيْنِ، المحادَثةُ بيْنَ المُرْسِلِ والوَسيط مُباشِرةٌ، وبيْنَ المُرْسِلِ والمُتلقّي غيرُ مُباشِرةٍ، ومِن خلالِ وَسيط.

٢- في الصُّوَرِ الأربع التّالية، المُحادَثةُ بيْنَ الوَسيطِ والمُتلقّي مُباشِرةٌ، وبيْنَ المُرْسِلِ والمُتلقّي غيرُ مُباشِرة.

٣- في الصُّوَرِ السِّتِّ كُلِّها، العلاقةُ بيْنَ المرْسِلِ والوَسيطِ والمُتلقِّي رُوِيَتْ بوساطة الرّاوي، وتَبَعًا لذلك تكونُ عباراتُ الابتداءِ قبْلَ النّقطتَيْنِ مِثْل: (يقولُ س لِـ م)، مَزيداتٍ مِن الرّاوي، ويكونُ وجُودُها في رِواية الرّاوي لازِمًا. هناك أيضًا كلماتٌ هي زِياداتٌ مِن الوَسيطِ بيْنَ طَرَفَي المُحادَثة.

٤- رسالةُ المُرْسِلِ إلى المتلقّي في النّماذِجِ السِّتّة تكونُ في أصِلِ المُحادَثةِ جُمْلةً أَمْريّةً واحِدة. لكنْ يمكنُ أن تكونَ مشتملةً على عدَدٍ أكبَرَ مِن الجُمَل في وُجُوهِ الخَبَرِ والاستفهامِ والأَمْرِ والتّعجُّبِ وكذا على تَراكيبَ مِن أنواعِ الجُمَل. والوَسيطُ أيضًا يمكنُ أن يَحْكيَ عَيْنَ أقوالِ المُرْسِلِ بغَيْرِ تصرُّفٍ البتّةَ، أو ينقُلَها مَعَ حِفْظِ مَعْناها في أيّةِ صُورةٍ يَشاؤها.

٥- المُرْسِلُ بسَببِ عَدَمِ حُضورِ المُتلقّي، يُوصِّلُ حديثَه إلى المُتلقّي بطريقِ الوَسيط، ويُبلِغُ رسالتَهُ بطَريقِ الوَسيطِ إلى المتلقّي. فإن حَضَرَ المُتلقّي، استطاعَ أن ينقلَ كلامَه مُباشَرةً إلى المتلقّي مِن دونِ أيِّ إشكالٍ ومانِعٍ.

٦- كُلٌّ مِن المُرْسِلِ والمُتلقّي والوَسيطِ يمكنُ أن يكونَ شخصًا واحِدًا أو أكثَرَ مِن شخصٍ واحِد.

٧- إذا ما استمرّتِ المُحادَثةُ، أبلَغَ مُتلقّي الرّسالةِ أيضًا كلامَهُ بطَريقِ الوَسيط إلى المُرْسِلِ الأوّل، الذي في هذه الحالةِ ستكون لَدَيه صُورةُ المُتلقّي. وعاديٌّ أنّ المُحادَثةَ بيْنَ طَرَفَي مُحادَثةٍ تحصُلُ شَفَهيًّا بوُجُودِ فاصِلٍ مكانيٍّ كبيرٍ بيْنَ الطّرَفَيْنِ وبطَريقِ وَسيطٍ، لا يمكنُ أن تَطُولَ.

٨- عندَما يحصُلُ المُتلقِّي بطَريق وَسيطٍ كتابيٍّ على رسالةِ المُرْسِلِ، عندَما يتعذّرُ عليه الوصولُ إلى مُرْسِلِ الرّسالة، تكونُ مُحادثتُهُ مَعَ مَتْنٍ، ومِن طَريقِهِ يعْرِضُ أسئلتَه وإجاباتِه.

الوَحْيُ أيضًا مُحادَثةٌ تحصُلُ بوَسيطٍ. لكنْ في الوَحْي يكونُ مُرْسِلَ الرّسالةِ اللهُ تعالى ويكونُ الوسيطَ الرّسولُ، ويكونُ المُخاطَبَ الرّسولُ وجميعُ النّاسِ أيضًا[٢]. وإنّ الشّخصيّةَ والمَقامَ والموقِعَ الخاصّةَ بالفَرْد، التي يتحلّى بها الوسيطُ في صِلتِهِ بالمرْسِلِ في عمليّة الوَحْي، والمَقامَ والمنزِلةَ اللّذَيْنِ يعلوانِ على مَقامِ البشَر ومنزلتهم لَدَى مُرْسِلِ الرّسالة، ينشَأ عنها أنّ كلامَ الوَحْيِ وطريقةَ بَيانه وبِنيتَه تأخُذُ وَضْعًا خاصًّا واستثنائيًّا تمامًا، بعيدًا تمامًا عن عاداتِنا وتوقُّعاتِنا قياسًا إلى المحادَثةِ بوجودِ وسيطٍ بَيْنَ النّاس. وسَبَبُ ظُهورِ هذه الطّريقةِ البَيانيّةِ الخاصّةِ هي الشّروطُ والموقِعُ الخاصُّ، أو على جِهةِ العُمومِ السِّياقُ أو مُقتضياتُ الأحوالِ التي تحكُمُ المحادَثةَ بِناءً على عقيدة المسلمين، التي يمكنُ أن يُشارَ إليها بأبرزِ مَظاهرِها:

١- مُرْسِلُ الرّسالةِ أو المتكلِّمُ خَلَقَ الموجوداتِ كلَّها، ومِنها الوَسيطُ وكلُّ النّاس. وعِلْمُهُ وقُدرتُه لا نِهايةَ لَهُما، إذ يرى الجميعَ ولا يَراهُ أحَدٌ، وهو العَليمُ بأحوالِ جميع البَشَر في الماضي والحاضِرِ والمستقبَلِ، ويعْلَمُ أسئلتَهم مِن دون أن يعبِّروا عنها بألسنتهم.

---

(٢) في بحثنا، لا تختلفُ كيفيّةُ الوَحْي حينَ يكونُ مُخاطَبُ الحقِّ تعالى الرّسولَ ﷺ مباشرةً، أو بوَساطةِ جبريل. وفي الأحوالِ كلّها، الرّسولُ ﷺ وَسيطٌ بينَ الحقّ والخَلْق، وكلامُ الله يُوصَلُ بِطَريقِه إلى النّاس. وفي شأنِ كيفيّتِهِ وأنواعِه، يُنظَر:

- المَيْبَديّ، أبو الفَضْل رشيدُ الدّين، كَشْفُ الأسرار وعُدّةُ الأبرار، بتحقيق علي أصغر حكمت، انتشارات امير كبير، ١٣٦١هـ.ش، ج٩، ص٤٣-٤٤ [الأصل].

٢- مُرْسِلُ الرّسالةِ في عَيْنِ الوقتِ الذي يكونُ فيه غائبًا عن أبصارِ جميعِ المُتلقِّينَ للرّسالة (النّاس) وحتّى عن بَصَرِ الوَسيطِ (الرّسولِ)، يكونُ موجودًا في كلِّ الأزمانِ وكلِّ الأمكنة، ومُبصِرًا أعمالَ كلِّ مُتلقِّي الرّسالة وأحوالَهم وفِكَرَهم. وبِناءً على هذا، يكون قادرًا على أن يكلِّمَ مُباشَرةً بغيرِ وَسيطٍ كلَّ إنسانٍ، فَرْدًا كان أم مجموعًا. وكلامُه بطَريق وَسيطٍ معَ الآخَرين لَيْسَ سَببُه الفاصِلَ المكانيَّ والبُعْدَ عن المُخاطَبينَ أو غيابَهم عنه، بل مبعثُه أنّ المُخاطَبينَ لا يَقدِرون على سَماعِ كلامِهِ وفَهْمِهِ إلّا بطَريقِ وسيط. وبِناءً على ذلك يَقدِرُ على:

أ- أن يُكلِّمَ الوَسيطَ نفسَه مُباشَرةً في شأنِ أحوالِهِ وفِكَره وأسئلته، ويكونَ مُخاطَبُهُ الوسيطَ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢ - ٣].

ب- أن يتكلّمَ بِطَريقِ الوَسيطِ مُباشَرَةً معَ الآخَرين. ويَعْني ذلك أنّه لا يقولُ للوَسيط: (قُلْ لِلنّاسِ كذا)، بل يغدو الوسيطُ فقط وسيلةً لِلْإحساسِ برسالتِهِ وإمكانيّةِ سَماعِها مِن الآخرينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧٠].

ج- أن يُوصِلَ رسالتَهُ بطَريقِ الوَسيطِ على نحوٍ غيرِ مُباشِرٍ إلى المُخاطَبين، ويقولَ لِلْوَسيط: قُلْ لَهُم كذا..: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

٣- كلماتُ المُرْسِلِ قابلةٌ لِلسَّماعِ والفَهْم، فقط مِن فَمِ وَسيطٍ واحِدٍ (الرّسول)، والوَسيطُ إبّانَ إدراكِهِ كلماتِ المرْسِلِ يَقَعُ في حالةِ عَدَمِ اطّلاعٍ (بالفارسيّة: دَرْ نا آگاهی) مُؤقّتةٍ، ولا يتحدّثُ إلّا بما وَصَلَ إليه، ولا يكونُ قادرًا على أصْغَرِ تَصرُّفٍ بكلماتِ المُرْسِلِ بطَريقِ حَذْفٍ وإضافةٍ وتغييرٍ وأيِّ تصرُّفٍ آخَرَ.

٤- لا الوَسيطُ، ولا أيُّ شَخْصٍ آخَرَ، قادرٌ على أن يُكلِّمَ اللهَ مُباشَرةً وبطَريقِ اللّسانِ أو الوَسيط. ما يَمُرُّ بخاطِرِ كلِّ مُخاطَبٍ بكلامِ الله، يُبيِّنُه اللهُ [تعالى]، وبطَريقِ الوَسيط يتظهَّرُ بصُورةِ كلامٍ محسوس. وبناءً على هذا، معَ أنّه في الظّاهِرِ كلماتُ الآخَرينَ غيرِ الله أيضًا تَتبيّنُ بِلسانِ الوَسيط، قائِلُ كلِّ تلك الكلماتِ على الحقيقة هو اللهُ أيضًا. ولِهذا السّبَبِ، معَ أنّه في عالَمِ مَتْنِ القرآن يتكلَّمُ اللهُ والرّسولُ والأنبياءُ السّابقونَ والمَلائكةُ وأُناسُ الحاضِرِ والماضي أيضًا [في زمان تنزُّلِ القرآن]، الجميعُ صامتونَ على الحقيقة، والمتكلِّمُ الأوحَدُ هو اللهُ [تعالى].

٥- مُرْسِلُ الرّسالةِ (اللهُ) هو في اعتقادِ المؤمنينَ حاضِرٌ على امتدادِ الزّمانِ ويحضُرُ. ولِهذا السَّببِ، يُمكنُه في أثناءِ الكلامِ في شأن الماضي والحاضِرِ أن يتكلّمَ بضَمير الغائبِ (هو)، أو بضَميرِ المتكلِّمِ (أنا، نحنُ). ويمكنُه أيضًا في شأنه [تعالى] أن يستعمِلَ الفِعْلَ المبْنيَّ لِلْمعلوم أو الفِعْلَ المَبْنيَّ لِلْمجهول، سَواءٌ أكان ذلك بصِيغةِ المجهولِ أم بصِيغةِ المعلوم بمَعْنَى المجهول. وعلى هذا النّحو، عندَما يكونُ اللهُ (أنا) و(نحنُ) و(هو)، يمكنُ كلامَهُ أن يتّضحَ مِن دون أيّ توضيحٍ وإشارةٍ باللّغة إلى (أنا) و(نحنُ)

و(وهو)، ويتغيَّرَ بحُرِّيّة، وسيتغيّرُ يقينًا فِعْلُ الجُمْلةِ أيضًا تَبَعًا لتغيُّرِ المُتكلِّم. وهذا التّغيّرُ الحُرُّ لِلْمُتكلِّم ينطبِقُ أيضًا على مُخاطَبي القُرآن. المُخاطَبُ الأصْليُّ بكُلِّ كلامِ الله هو (الرّسولُ) (عليه الصّلاةُ والسّلامُ)، ثمّ بطَريقِهِ النّاسُ جميعًا. أمّا الحضورُ الدّائمُ لله في الزّمان فينشَأُ عنه أنّ النّاسَ جميعًا مِن الماضي أو الحاضِرِ يتكلّمون معَهُ [تعالى]، كلامًا يُنقَلُ مِن قَوْلِ الله؛ على حين في الظّاهِرِ المتكلِّمُ هم الآخَرون. وعندَما يتكلَّمُ الآخَرونَ، يتولّى اللهُ عَمَلَ الوسيطِ. لِأنّه مِن ناحيةٍ يُبيِّنُ أحوالَهم وأعمالَهم وكلماتِهم في صورةِ راوٍ واحِدٍ وعَليمٍ بكلِّ شيء، ومِن ناحيةٍ أخرى يغدُو هو أيضًا مُخاطَبَهم وطَرَفًا في مُحادَثتهم في صُورةِ شخصيّةٍ حاضِرةٍ على امتدادِ الزّمان. بينَما الوَسيطُ (رسولُ العَصْرِ) هو فقط المُتكلِّمُ الذي يَرْوي سِيَرَ الماضينَ في علاقتِهم به. وبِناءً على هذا، يكونُ رُسُلُ الماضي وأُناسُهُ وكذا الرّسولُ الحاضِرُ (الوَسيطُ) وأُناسُ العَصْر، مُخاطَبي الله [تعالى]، ويكونُ هو أيضًا مُخاطَبَهم. وما أكثَرَ ما يحدُثُ [في القرآن]، مِن دُون أيّ شَرْحٍ وإيضاحٍ وإشارةٍ، أن يتغيَّرَ المُخاطَبونَ أيضًا، وأن يُغيِّرَ المتكلِّمُ وِجْهةَ الكلامِ الموجَّهِ إلى المخاطَبينَ.

وهذا التّغييرُ والتّحوُّلُ الحُرُّ لِلْمُتكلِّمِ والمُخاطَبِ، الذي كثيرًا ما يظهَرُ في القُرآن مِن دونِ أيّةِ إشارةٍ أو إعلامٍ ونجدُه بَيْنَ الفَيْنةِ والأخرى، والذي كثيرًا ما يصحَبُ فيه تغييرُ المُخاطَبِ تغييرَ أساسِ معْنَى الكلام، يجعَلُ صُورةَ بِنْيةِ لُغةِ القُرآن أيضًا مُخالِفةً للمألوفِ المُعتادِ تمامًا، ومنحصِرةً بِفَرْدٍ. التّغييرُ الحُرُّ للمُتكلِّمِ والمُخاطَبِ النّاشئُ عن حُصولِ الكلامِ في شُروطٍ

وسِياقٍ خاصٍّ مُتحكِّم بالكلامِ، يُخَلْخِلُ البناءَ الطّبيعيَّ لِلّغةِ المنتظَرةِ ويُحبِطُ تَوقُّعَ سامِعِ القُرآنِ وقارئِهِ مِن ناحيةٍ، ويقطَعُ التَّسَلْسُلَ المَنْطقيّ لِتأليفِ المَعاني مِن ناحيةٍ أخرى. ونَرَى هذا القَطْعَ حتّى في روايةِ قِصَصِ الأُمَمِ السّابقة. وفي القُرْآنِ، بصَرْفِ النّظَرِ عن أنّ قِصَصَ الأنبياء في كثيرٍ مِن الأحيان تُعْرَضُ في تضاعيفِ الكلام وتُقطَعُ بَعْدَ بَيانِ جُزْءٍ مِنها ثمّ بَعْدَ ذلك مَرّةً أخرى تُذْكَر أجزاءٌ مِنها في السُّورةِ نفسِها أو في سُوَرٍ أُخَر، يأتي عَرْضُ القِصّة في الأعمّ الأغْلَبِ بغَيْرِ مُقدِّمةٍ وغيرَ مُنتظَرٍ.

المَسائلُ المَعْروضةُ في كلِّ سُورةٍ متنوِّعةٌ، وتبدو في الظّاهِرِ مُنقَطِعًا بعضُها عن بعضٍ، على نَحْوِ أنّه لَوْ أزَلْنا مِن البَيْنِ (بِسْمِ اللهِ الرّحمن الرّحيم) التي تفصِلُ سُوَر القرآنِ بعضَها عن بعضٍ لَبَدا القرآنُ كِتابًا مِن قِطْعةٍ واحِدةٍ، نَجدُ فيه فِكَرًا مُتباينةً جدًّا مَصْحوبةً بقِصَصٍ تتكلَّمُ فيها شخصيّاتٌ مختلفةٌ في تضاعيفِ الفِكَر المُتنوِّعة. ومَعَ أنّ القائلَ الأصْليَّ والواحِدَ لِكُلِّ الفِكَر هو اللهُ [تعالى]، تَبْرُزُ في الظّاهر وعلى سَطْحِ عالَمِ المَتْنِ فِكَرٌ ومَطالِبُ على لِسانِ الحقِّ تعالى والأنبياءِ وحَضْرةِ الرّسولِ محمّد (عليه الصّلاةُ والسّلامُ) وشَخْصيّاتٍ أُخَرَ وحتّى أُناسٍ هم المُخاطبونَ الأصليّون، وتتداخَلُ وتتشابَكُ، وهي في عَيْنِ التّفرُّقِ والتّشتُّتِ الظّاهِريّ تنطوي على تَرابطٍ مُسْتَسِرٍّ كامِنٍ.

النَّظْمُ المتشتِّتُ والمخالِفُ لِلْعادةِ ولِلْمنطِقِ المُتعارَفِ في البيان، الذي أَلْقَى ظِلالًا مُستدامةً مِن الفَضاءِ القُدْسيّ على عالَمِ مَتْنِ القُرآن، مُتأثِّرٌ بمجموعةِ الظّروفِ الحاضِرةِ إبّانَ تحقُّقِ الوَحْي، التي لا يمكنُ أن نظفَرَ بنَظيرٍ لَها في أيِّ مَتْنٍ مِن المُتونِ القديمة، إلّا على نطاقٍ محدودٍ في المَثْنويّ المَعْنَويّ وغَزَليّاتِ شَمْس تَبْريز [لِجَلال الدّين الرّوميّ] وغزَليّاتِ حافظٍ [الشّيرازيّ].

...وههنا، ابتغاءَ اطّلاعِ أكبَرَ على عالَمِ مَتْنِ القُرآن ننقُلُ أجزاءً مِن سُورة طه. وقبْلَ ذلك، نُوردُ الآياتِ الأخيرةَ مِن سُورةِ مَرْيَم التي فُصِلَتْ بالبَسْملةِ عن سُورةِ طه، لكي يظهَرَ ترابُطُهما على نَحْوٍ جَليٍّ:

- مِن سُورة: مريم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ [مريم: ٩٦ - ٩٨].

- مِن سُورة: طه:

﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ

أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰٓ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ١ - ٥٧].

الآياتُ ٩٦-٩٨، وهي آخِرُ الآياتِ مِن سُورة مَرْيَم، يُلاحَظُ فيها الآتي:

في الآية ٩٦، اللهُ يتكلَّمُ علَيهم (المؤمنين، بضَمير جَمْعِ الغائبينَ) معَ النّبيِّ (عليه الصّلاةُ والسّلامُ).

في الآية ٩٧، بغَيْرِ فاصِلٍ يتوجَّهُ الكلامُ إلى النّبيّ (بضَمير المفرَدِ المخاطَب). ويُتكلَّمُ معَ (أنتَ)، في شأن (النّبيّ)، و(نَحْنُ) (اللهُ/ المتكلِّمُ).

في الآية ٩٨، ثانيةً يأتي الكلامُ إليهم (بضَمير جَمْعِ الغائبين)، ويُتكلّمُ معَ الضّمير (أنتَ)، وقَبْلَ أن تنتهيَ الآيةُ يتوجَّهُ الكلامُ مرّتَيْنِ إلى ضمير المفْردِ المخاطَبِ (أنتَ) (النّبيّ)، ويغدو (أنتَ) مُباشَرةً طَرَفًا في الخطاب.

السُّورةُ التي تأتي بعْد [طه] تبدَأُ بخطابٍ مباشِرٍ لِلنّبيّ، ويُتحدّثُ معَ هذا المخاطَبِ مُباشَرةً في شأنِهِ هو و(نَحْنُ). لكنْ بعْدَ ذلك يُغيَّرُ الضّميرُ مِن (نَحْنُ) إلى الضّمير (أنا).

في الآية ٤، يُغيَّرُ الضّميرُ (نَحْنُ) وأفعالُ الجَمْعِ المُناسِبةُ له إلى الضّميرِ (هو) والأفعالِ المُفردةِ المُناسِبةِ له. اللهُ (المُتكلِّمُ) يقولُ عن ذاته بِصيغة الغائبِ المُفرد: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾. تكلُّمُ الشّخصِ الأوّلِ (الله) في شأنه بضميرِ المفْرَد الغائب (هو) يستمرُّ إلى الآية ٨.

مِن الآية ٩ يَرْوي الحقُّ تعالى (المتكلِّمُ) جوانبَ مِن قِصّة موسى لِلنّبيّ بصيغة المفْرَدِ المُخاطَب (أنتَ). لكنّ الرّاوي (الله) يشترِكُ في أَحْداثِ قِصّة موسى في صورةِ شخصيّة واحدة.

في الآية ١١، يُعْلِنُ الرّاوي (الله/ المتكلِّمُ) عن حضورِه في الحكاية بفعلٍ ماضٍ مبنيٍّ للمجهول مُسْنَدٍ في الأصل إلى المفرَدِ الغائب: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾. أمّا في الآياتِ اللّاحقةِ فإنّ الرّاويَ الذي هو الله تعالى يَدخُلُ في الأحداثِ مباشرةً ويتكلَّمُ معَ موسى بصيغة المفرَدِ المُتكلِّم (أنا)، وينقُلُ لنا تعالى في مقام الرّاوي إجاباتِ موسى مُستعمِلًا كلمةَ (قال): ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ ...﴾ [طه: ١٨].

في الآية ١٩، خِلافًا لِما جاء في الآياتِ السّابقة، يذكرُ اللهُ تعالى ذاتَهُ مِثْلَ موسى أيضًا بصيغة المفْرَدِ الغائب (هو): (قالَ [الله تعالى:] ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾).

في الآية ٢١ أيضًا، يتكلَّمُ الله تعالى نفسُهُ بضَميرِ المفرَدِ الغائب: (قالَ

[اللهُ تعالى:] ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، لكنْ في آخِرِ الآية، يُستبدَل بضَمير المفرَدِ الغائبِ ضميرُ الجَمْعِ المتكلِّم: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾. وفي الآياتِ اللّاحقةِ تستمرُّ المُحادَثةُ على هذا النّحو، ويتكلّمُ اللهُ تعالى بضَمير الجَمْعِ المتكلِّم (نحنُ)، وينقُلُ كلماتِ موسى.

أمّا في الآيَتَيْنِ ٤١ و ٤٢، فيتكلَّمُ تعالى بضمير المفرَدِ المتكلِّم (أنا) معَ موسى وهارونَ أخيه، الذي بطَلَبِ موسى عَمِلَ مُساعِدًا له: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، ويستمرّ كلامُ الله تعالى في خطابِ موسى وهارونَ حتّى الآيةِ ٤٧.

الآيةُ ٤٨، بغَيْرِ مقدِّمةٍ ومِن دونِ أن تتكلَّم على مَجيءِ موسى وهارونَ إلى مَقَرِّ فرعون وكيفيّةِ حُضورهما أمامَهُ، تبدَأُ بكلامِ موسى وهارونَ في خطاب فِرْعونَ. حتّى إنّه لم يُقَلْ في الآية: (ذهبَ موسى وهارونُ إلى فرعونَ، وقالا:). وهذا الحَذْفُ لِجُمَلٍ لازمةٍ لِرَبطٍ مُناسِبٍ لِلْفِكَر هو أيضًا مِن جُمْلةِ انكساراتِ الأسلوب في مَتْنِ القُرآنِ، التي تأتي مُخالفةً لِتوقّعاتِ القُرّاءِ وانتظارِهم وعاداتهم الكلاميّة.

ولهذا السّبب، تأتي هذه الصُّوَرُ مِن الحَذْفِ في كُتُبِ التّفسير ممتلئةً بالتّوضيحاتِ القليلة أو الكثيرة بأقلامِ المُفسِّرين. ووُجودُ هذه المواضِعِ الخاليةِ الكثيرةِ بينَ آياتِ القُرآنِ، الذي كثيرًا ما يضطرُّ القارئَ إلى التّوقُّفِ والتّأمُّلِ، هو أيضًا إحدى خاصِّيّاتِ البِنْيةِ البيانيّة لِلْقُرآن، التي سنتحدّثُ عنها في موضعٍ آخَر مِن هذا البَحْث.

وابتداءً مِن الآية ٤٨، تستمِرُّ المُحادَثةُ بَيْنَ موسى وهارونَ وفرعونَ.

الآيةُ ٥٣، ابتداؤها في الظّاهِرِ تتمّةٌ لِمُحادَثاتِ موسى لِفرعون، لكنْ في وَسَطِ الآية ومِن دونِ أيِّ توضيحٍ ومقدِّمةٍ يتغيّرُ المُتكلِّمُ فيتكلّمُ اللهُ تعالى،

وهذه إحدى الصُّوَرِ الغريبة جدًّا لِلْأسلوبِ البَيانيّ القُرآنـيّ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

ومِثْلَما يُلاحَـظُ، الكـلامُ حتّـى قولِـهِ تعـالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾. هـو كلامُ موسى في خِطابِ فرعونَ، حيثُ يتكلَّمُ معَهُ في شأن إلهِهِ؛ أمّا مِـن قولِـه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا ...﴾ فإنّ الفعْلَ يتغيّرُ إلـى فِعْـلِ جَمْـعِ المتكلِّمـينَ (أَخْرَجْنـا)، ويتغيّـرُ المـتكلِّمُ علـى حِـينِ غِـرّةٍ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

ويمكـنُ هنـا أن نُسْـنِدَ الفِعْـلَ (أَخْـرجَ) إلـى الأناسـيِّ ومِـنهم موسـى وفرعونُ، ونجعَلَ المعنَى: أنزلَ اللهُ مِن السّماءِ ماءً لكي نُخرجَ (نَحنُ) أنواعًـا مختلفةً مِن النّباتـات، أي نزرعَهـا. لكـنْ علـى افتـراضِ أنّنـا نقبَـلُ مِثْـلَ هـذا التّأويل، لا شكّ في أنّه في الآياتِ التي تأتي بعْدَ الآية ٥٣، لا يمكنُ المُتكلِّمَ أن يكونَ موسـى، ويقينًـا يكـونُ اللهُ هـو المُـتكلِّمَ، وقـد حـدثَ هـذا التّغييـرُ للمُتكلِّمِ مِن دونِ أيّة قَرينةٍ وأيّ وَسيطٍ، ومِن دونِ أيّة مقدِّمة. وهذا عَيْنُهُ دليلٌ على أنّ هذا التّغييرَ لِلْمُتكلِّمِ مِن المفرَدِ الغائب (موسـى، هـو) إلـى المُـتكلِّمِ (الله، نحنُ) قد بَدَأ مِن النّصف الثّاني لِلْآيـة ٥٣ وبالفِعْـلِ (أخْرَجْنـا). كـذلك استُعْمِلَ في تفسير (جامِع البَيـان) لِلطَّبَـريّ، وفـي تفسـيرِ (كَشْـف الأسـرار) لِلْمَيْبَديّ، التّفسيرُ نفسُه. جاء في تفسير (كَشْف الأسرار) لِلْمَيْبَـدي: «وقولُـه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مِن ناحيةِ السَّماء، مـاءً (مَطَـرًا). وهنـا تـمَّ جـوابُ مُوسى. ثمّ تغيّر الخطابُ. قال رَبُّ العِزّةِ جَلَّ جَلالُه: (فَأَخْرَجْنا)»[٣].

(٣) المَيْبَديّ، أبوالفَضْل رشيدُ الدّين، كَشْف الأسـرار وعُـدّة الأبـرار، ج٦، ص١٣٢. وانظُـرْ أيضًا: الطّبريّ، أبو جعفر محمّد بن جريـر، جـامِعُ البَيـان عـن تأويـل آي القـرآن، ج١٦، ط٢، القاهرة ١٩٥٤م، ص١٧٤ [الأصل].

في الآيَتَيْنِ ٥٤ و ٥٥، بعْدَ الجُزْءِ الأخير مِن الآية ٥٣، المُتكلِّمُ هو الله أيضًا والنّاسُ هم المخاطَبونَ. وهاتانِ الآيتانِ غيرُ مرتبطتَيْنِ بقِصّة موسى وفرعون.

في الآية ٥٦، يعودُ الحقُّ تعالى مرّةً أخرى إلى قِصّة موسى وفرعونَ ويَعرِضُ لِلْقصّةِ مِن بدايتها.

البحثُ في الأساليبِ البَيانيّةِ القرآنيّة المحبِطةِ لتوقّعِنا وعاداتِنا وانتظارِنا، نحنُ البَشَرَ، في غاية التّنوّعِ والاتّساع. ففي سُورةِ الفاتحة مَثَلًا، النّاسُ هم المتكلِّمونَ والله تعالى هو المخاطَبُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وفي الآياتِ الأخيرة مِن سُورة (الصّافّات)، يشيرُ الحقُّ تعالى، الذي يكلِّمُ النّبيَّ، بإيجازٍ شديدٍ إلى سِيَرِ الأنبياء، وبعْدَ كلماتٍ أُخَر يقولُ في الآياتِ ١٥٩-١٦٣: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾. هذا الكلامُ كما هو ظاهِرٌ كلامُ اللهِ معَ النّبيّ. وفي الآيَتَيْنِ ١٥٩ و١٦٠، يتحدّثُ الحقُّ تعالى (عنهم) معَ النّبيّ. أمّا في الآيةِ اللّاحقةِ ١٦١ فإنّ الضّميرَ (هُمْ) يتحوّلُ إلى (أنتُمْ). وهكذا يبدو أنّ الله يُوجِّهُ الكلامَ إليهم مُباشَرةً، ويُخاطِبُهم بالضّمير (أنتُمْ)، مِن دونِ أنّه بناءً على انتظارِنا تُقالُ هذه الجُمْلةُ هكذا مَثَلًا: (أيُّها النّبيُّ قُلْ لَهُمْ: أنتُمْ و... وفي آخِرِ الآيةِ أيضًا، جاء (هُوَ) في مَحَلِّ (أنا).

أمّا الأمْرُ اللّافتُ للانتباه، فهو أنّه عُقْبَ الآية ١٦٣، تتابَعُ الآياتُ على هذا النّحو: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٩].

ومِثْلَما يُرى، في الآيات ١٦٤ إلى ١٦٦ نجدُ أنّ اللهَ [تعالى] الذي كان قَبْلُ يتكلَّمُ بصيغةِ الرّاوي المفْرَدِ الغائبِ (هو، الله) معَ النّبيّ في شأنهم

(هم)، يَتحوّلُ مِن دون أيّة إشارةٍ إلى المتكلِّم بضمير الجَمْع (نَحْنُ)، ويتغيّرُ موضوعُ الكلامِ أيضًا، لكنّه لا يمكنُ نِسْبةُ موضوعِ الكلامِ إلى الله سُبْحانَه. وفي هذه الآياتِ، لا يَنْطوي نَسيجُ الكلام على أيّةِ إشارةٍ تجعَلُنا نفهَمُ: مَنِ المُتكلِّمُ، ومَنِ المُخاطَبُ؟ - وهلِ المُتكلِّمُ (نحنُ) في الآيات ١٦٤-١٦٦ واحِدٌ أو أنّهم أشخاصٌ مختلفون.

وبِسَبَبِ هذا الإبهامِ نفسِه، يختلفُ المُفسِّرون أيضًا في تحديد المتكلِّمِ والمخاطَبِ في هذه الأمور، ويَتحدّثونَ بشيءٍ مِن الشّكِّ والتّردُّد. ويُوضِحُ المَيْبَديُّ في شأن هذه الآياتِ قائلًا:

(في قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، يذهَبُ المفسِّرونَ إلى أنّ هذا كلامُ المَلائكة. جاء جِبْريلُ وقال لِلْمُصْطفَى: مَا مِنّا مَلَكٌ إلّا له في السَّماءِ مَقامٌ معلومٌ، يَعبُدُ اللهَ هناكَ. أي إنّنا عَبيدٌ وعابدونَ، ولَسْنا مَعْبودينَ، مِثْلَما يقولُ الكافِرون...)[٤].

ومِثْلَما يُلاحَظُ، وبناءً على تفسيرِ المَيْبَديّ في أوّلِ الآيات التي ذكَرْناها، يغدو المُتكلِّمُ جِبْريلَ، الذي يتحدّثُ معَ النّبيّ في شأنِهِ هو وفي شأنِ الملائكة. وبعْدَ ذلك، يكتُبُ المَيْبَديُّ مُعلِّقًا على الآيات التّالية:

(﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾، قال الكَلْبيُّ: «هُمْ صُفوفُ المَلائكةِ في السّماءِ لِلْعِبادة كصُفوفِ النّاسِ في الأرض ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾...». قال قَتادةُ: «كان الرِّجالُ والنّساءُ يُصَلُّونَ معًا»... ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾. وقِيلَ: «الضّميرُ ها هُنا راجعٌ إلى النّبيّ ﷺ والمؤمنينَ ومَنْ خاطَبَهُم مِن الكُفّار. يعني: لَيْسَ مِنّا ومنكم إلّا مَن لَهُ في الآخِرة مَقامٌ معلومٌ».

(٤) المَيْبَديّ، كَشْف الأسرار وعُدّة الأبرار (سابق)، ج٨، ص٣١٠ [الأصل].

وكذلك قولُهُ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾، المُرادُ به النّبيُّ ﷺ والمؤمنون. يعني: نحنُ الصّافّونَ لِلهِ في الصّلاة، ونحنُ المسَبِّحونَ المُمَجِّدون المُنزِّهونَ اللهَ عن السّوء. وقِيلَ: ما مِنّا يومَ القيامةِ إلّا مَنْ له مَقامٌ معلومٌ بينَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وجَلّ.

ثمّ أعادَ الكلامَ إلى إِخْبارٍ عن المشركينَ فقال: (وَإِنْ كانُوا...)[٥].

ومِثْلَما يلاحَظُ، يؤوِّلُ الكَلْبيُّ (الصّافّونَ) بصُفوفِ الملائكةِ في السّماء، وبِناءً على هذا، يعودُ الضّميرُ (نحنُ) إلى الملائكة، وهم المتكلِّمونَ، أو إلى جِبْريلَ، الذي يتكلّمُ في شأنِهِ هو والمَلائكة بضَميرِ جَمْعِ المتكلِّمينَ. ويعتقِدُ قَتادةُ أنّ (الصَّافّونَ) في الآيةِ، إشارةٌ إلى الرّجالِ والنّساءِ الذين يُصَلّونَ معًا. وبِناءً على هذا، يعودُ الضّميرُ (نحنُ) إلى الرّجالِ والنّساءِ المصَلِّينَ، وهم المتكلِّمونَ. وقال آخرونَ: الضّميرُ (نحنُ) يعودُ إلى النّبيّ ﷺ والمؤمنينَ، ومُخاطَبوهم هم الكفّار. وبِناءً على هذا: المُتكلِّمُ إمّا أن يكونَ النّبيَّ الذي يتكلّمُ على نفسِه وعلى المؤمنين بضمير جَمْعِ المتكلِّمينَ، وإمّا أن يكونَ المؤمنينَ الذين يتكلّمونَ على أنفسهم وعلى النّبيّ. بعضٌ آخَرُ، عَدَّ الضّميرَ (نحنُ) عائدًا إلى النّبيّ والمؤمنين، لكنّه لم يَعُدَّ الكُفّارَ مُخاطَبينَ. وفي الموضِعَيْنِ المتقدِّمَيْنِ، يَعني قولَ الكَلْبيِّ وقتادة، لم يكنِ المُخاطَبُ معلومًا.

ويكتبُ المَيْبَديُّ، بعْدَ نَقْلِ الأقوالِ في شأن الآياتِ وتوضيحها على نحوِ ما قَدّمْنا، في شأنِ الآية ١٦٧ قائلًا: (ثمّ أعادَ [اللهُ تعالى] الكلامَ إلى إِخْبارٍ عن المشركينَ، فقال: (وإن كانوا). أي: مَرّةً أخرى، يغدو المتكلِّمُ اللهَ والمخاطَبُ النّبيَّ، والموضوعُ هو استمرارٌ لِلْكلامِ السّابق في شأنِ الإخبار عن المشركين.

والأمثلةُ التي ذكَرْناها وأوضَحْناها، ونلتقي في مَتْنِ القرآنِ كلّه بأمثالٍ لَها وبنَماذجَ أُخَرَ متنوّعةٍ، حاكيةٌ عن أنّ القُرآنَ خِلافًا لِلْكُتُبِ المُقدَّسة الأُخَر

(٥) المصدر السّابق نفسُه، ج٨، ص٣١١ [الأصل].

وَحْيٌ خالِصٌ يُوحَى بغَيْرِ تفسيرٍ وتصرُّفٍ مِن أيّ ضَرْبٍ كان، وأنّ النّبيَّ قد حَكَى ما أوحاهُ إليه اللهُ [تعالى] أو بطَريقِ جِبريلَ مِن دونِ أيِّ تغييرٍ وتصرُّفٍ بالمعنَى الحقيقيّ للكلمة.

...ويبدو لِزامًا، تَبَعًا لِما قُلْناه، أن نُبيِّنَ بإيجازٍ السِّياقَ الوَضْعيَّ الحاكمَ لظُهور الوَحْي، وأبرزَ خاصِّيّاتِ البِنْيةِ في الكلامِ المُوحَى به، النّاشئةِ عن حاكميّةِ ذلك السِّياق...

في الصّورة الظّاهرة، القُرآنُ مُحادَثةٌ بينَ مُرْسِلِ الرّسالة ومُتلقِّي الرّسالة بفَضْل وَسيطٍ، لكنّه في هذه المحادَثة كما أشَرْنا قَبْلُ يتحلَّى كلٌّ مِن مُرْسِلِ الرّسالةِ (الله تعالى) والوَسيطِ المبَلِّغ لِلرّسالة (النّبيّ) بمَقامٍ خاصّ وموقعٍ فَريدٍ تمامًا لا يمكنُ أن يتحقّقا في أيّة مُحادَثةٍ بينَ بَشَرَيْنِ. وهذا المَقامُ الخاصُّ والمَوْقِعُ الفريدُ ينشَأُ عنهما أنّ مُتلَقِّي الرّسالةِ، الذين هم وَسيطٌ وهم كلُّ النّاسِ، لهم في هذه المحادَثةِ وَضْعٌ خاصٌّ ومُنحَصِرٌ بِفَرْدٍ أيضًا.

وفي هذه المحادَثةِ، يكونُ كلٌّ مِن ذَوي العلاقةِ بالمحادثة تَبَعًا لِمُقتضَى الحالِ متكلِّمًا ومُخاطَبًا في الوقتِ نفسه. وبناءً على هذا، في عالَمِ مَتْنِ القُرآن يبدو في الظّاهر أنّ الجميعَ يتكلّمونَ، أمّا على الحقيقةِ فإنَّ الجميعَ صامتونَ، واللهَ وَحْدَه يتكلّمُ. ومِن وِجْهةِ النّظَرِ هذه، يمكنُ حُكْمَ ابنِ عَرَبيّ في شأن الحقِّ والخَلْق أن ينطبقَ على الحقّ وعَالَمِ مَتْنِ القُرآن. ففي عالَمِ مَتْنِ القرآنِ أيضًا، الحقُّ عَيْنُ الخَلْقِ والخَلْقُ عَيْنُ الحقّ(٦). وفي مَتْنِ العالَمِ أيضًا، الذي هو القُرآنُ التّكوينيُّ والغَيْرُ المكتوبِ لِلهِ وفيه كلماتُ الله لَيْسَ في صُورةٍ مكتوبةٍ ومَلْفوظةٍ بل هي أعيانُ الموجودات، يكونُ الحقُّ عَيْنَ

(٦) ابن عَرَبيّ، مُحيي الدّين، فُصوصُ الحِكَم، تعليقات أبو العلا عفيفي، الصّفحات ٤٤-٤٥، ٢٥٧-٢٥٨ [الأصل].

الخَلْقِ والخَلْقُ عَيْنَ الحقّ. والخَلْقُ لا يشمَلُ الأَناسِيَّ فقط، بل يشمَلُ أيضًا كلَّ الأشياءِ مِن كلِّ الأنواع. ففي القرآنِ حَتَّى النَّمْلةُ والهُدْهُد يتكلّمانِ.

ولِأنّ اللهَ [تعالى] عَليمٌ بكُلِّ أحوالِ الخَلْق وسَرائرِهم ورَغائبهم، ومِن جُملتهم النّبيُّ [عليه الصّلاةُ والسّلامُ]، يكون كلامُهُ في كثيرٍ مِن الأمور مُناسِبًا لِحالِهم ولِإجاباتِ الأسئلة التي تَعِنُّ لهم وتنبعِثُ في خواطِرِهم. لكنْ لَيْسَ لِزامًا أن يُظهِرَ الحَقُّ تعالى في كلّ مكانٍ أحوالَهم وأسئلَتهم، ثمّ بعْدَ ذلك بمُناسَبة تلك الأسئلةِ أو الأحوال يتكلَّمُ. فالتّكلُّمُ بمُقتضَى حالِ المخاطَبينَ ومَقالِهم عندَما لا يَعْرِضُ ذلك الحالُ والمَقالُ، ينشأ عنه أنّ الصِّلةَ بينَ المَطالِبِ والمعاني تبدو مُبْهَمةً ومُفكَّكةً، ويبدو السَّيْرُ المنطقيُّ لِلْكلامِ مُخالِفًا للمعتاد والمُنتظَر والمُتوقَّع عندَ قارئي القُرآن أو مستمعيه. وعلى هذا النّحو، في كثيرٍ مِن المواضِعِ يُوجَدُ بَينَ المعاني المختلفة لِمَتْنِ القرآن فَضاءٌ خالٍ حتّى في تضاعيفِ سَرْدِ القِصَص، وهو الأمرُ الذي يجعَلُ قارئي القُرآنِ أحيانًا غيرَ قادرين على تخطّي ذلك إلّا بمُساعَدةِ المُفسِّرينَ والمؤوِّلينَ. وهذا الأمرُ، شأنُه شأنُ التّغييرِ المفاجئ للمُتكلِّمينَ والمخاطَبين، مِن الأسبابِ المُهمّةِ لِلْإحساسِ بمُخالَفةِ المعتادِ في مَتْنِ القُرآن، والإبهامِ فيه.

الوَسيطُ (الرّسولُ) في عمليّةِ الوَحْي، مِثْلَما قُلْنا، له وَضْعٌ خاصٌّ. فهو في الظّاهِرِ متكلِّمٌ، وتظهَرُ رسالةُ المُرْسِلِ الغيرِ البادي لِلْعِيانِ على لِسانه، لكنّه على الحقيقة لا يتكلّمُ بكلمةٍ وصَامِتٌ. وبِناءً على ذلك، يمكنُ باعتبارٍ عَدُّهُ صامِتًا - متكلِّمًا، وباعتبارٍ آخَرَ متكلِّمًا - صامِتًا. وهكذا، يتكلَّمُ بِمَتْنِ القُرآنِ إنسانٌ لا يتكلَّمُ. فذلك الذي يتكلَّمُ في الظّاهر هو النّبيُّ ﷺ، وأمّا في الباطِنِ فالمتكلِّمُ هو الله تعالى. الإطارُ الوَضْعيُّ لِلْمُحادَثةِ الذي يشمَلُ مِن بينِ محتوياتِهِ المَقامَ والوَضْعَ والأحوالَ التي عليها طَرَفا المحادَثةِ في

التّرابط الإنسانيّ، ويشمَلُ عالَمَ المَقال، يؤثّرُ أيضًا تـأثيرًا مُباشِـرًا فـي طريقـة البيانِ وبِنْيته. وطبيعيٌّ أنّ إطـارَ وَضْـعِ المُحادَثـة فـي عَمَليّـة الـوَحْي، بسَـببِ ظُروفِ السِّياقِ والوَضْعِ الخاصِّ بالفَرْدِ المتحكِّمِ فيه، يتركُ تأثيرًا بـارزًا جـدًّا وغريبًا جدًّا في لُغةِ الوَحْيِ القُرآنيّ وبِنْيته، نادرًا ما يمكنُ مُلاحظتُهُ فـي أنـواعِ الخِطابِ في الأدب القديم الذي يُركّز على حِيازة المعنَى ومَنْطِقِ اللّغة(٧).

تأثيرُ هذا السِّـياقِ الخـاصِّ لِعَمَليّـةِ الـوَحْي تَبَعًـا لِمـا قُلْنـاهُ، نَـراه أظهَـرَ وأوضَحَ في المظاهِرِ الآتية:

١- القَطْعُ المتواصِلُ للتّرابُطِ المنطقيّ لِلْكلامِ بطَريقِ عَـرْضِ مَعـانٍ جديـدة وغيرِ مرتبطةٍ في الظّاهر بالمعاني السّـابقة، وتَنـاوُلٍ مِـن البدايـة لِمَعـانٍ سابقة فـي مكـانٍ آخَـر، علـى نحـوٍ تخفَـى فيـه عِلّـةُ ذلـك غالِبًـا علـى المخاطَبِ أو القارئ.

٢- تقـديمُ الحكايـاتِ مُراعـاةً لِلْحـالِ الرّوحيّـة لِلْمُخـاطَبين وفَهْمهـم، وقَطْعُها ووَصْلُها بطَريقِ عَرْضِ مَعانٍ ناشئةٍ مِن الحكاية، مِن دُونِ أن يلتزمَ الشّروعُ والقَطْعُ والوَصْـلُ فـي الحكايـات مَنْطِقًـا خاصًّـا لازِمَ الرِّعاية ومُنسجمًا معَ انتظار المخاطَبينَ وعاداتِهم وتوقّعاتِهم.

٣- التّغييرُ والتّبديلُ بغَيْرِ مقدّمةٍ، ومِن دُونِ قرينةٍ للمـتكلِّمِ والمخاطَـب، إلى دَرَجةٍ يكونُ فيها صَعْبًا أحيانًا تحديدُ مَـن يـتكلَّمُ، ومَـن يَسْـمَعُ. وهذا إلى حَدّ بعيد ناشئٌ عن تعدُّدِ المتكلِّمينَ والمخاطَبينَ الفَرْعيِّينَ في عالَمِ مَتْنِ القُرآن، ووجودِ وَسيطٍ بينَ مُرْسِلِ الرّسالةِ ومُتلقِّيها.

---

(٧) في هذا الشّأن، يُنظَر مقدّمةُ الكتابِ الآتي:

- Derrida Jacques, Speech and Phenomena, translated by David B. Allision, Northwestern University Press, 1973, p.p. IX-Xi.

٤- العِلْمُ الذي لا نهايةَ له لِمُرْسِلِ الرّسالة، أو المتكلِّمِ الأصْليّ، ينشَأ عنه أنّه أحيانًا يتكلَّمُ على أسرارٍ وحقائقَ لا يُحيطُ بشيءٍ مِنها عِلْمُ المخاطَبين وخِبرتُهم ومُسْتَوْعَبُ لُغتهم. وهذا الوَضْعُ يجعَلُ الكلامَ رَمْزيًّا ومُوجِدًا حقائقَ لا يتيسّرُ فَهْمُها إلّا مِن طريقِ تأويلِ المتأوّلين وإعمالِ أذهانهم. وفي هذه العَمليّةِ تتصادَمُ رَوابِطُ الدّالِّ والمدلولِ التي هي الأساسُ الأوّل في عِلْمِ العلاماتِ اللّغويّ، وتتّسعُ إمكانيّةُ التّأويلِ واستنباطِ المعاني الكثيرة مِن المَتْن.

والنِّقاطُ التي أتَينا على ذِكْرِها بإجمالٍ، ينشَأ عنها أنّ (البِنْيةَ البَيانيّةَ) في القرآن في صُورة الوَحْي الصِّرْفِ الذي لا تدخُّلَ فيه ولا تصرُّفَ ولا تفسيرَ، تبدو مُوجَزةً ومُبهَمَةً، وقِياسًا إلى السَّمْتِ الطّبيعيّ والمَنْطقيّ لِلْكلام والمُحادثة الذي أَلِفْناهُ واعتَدْناهُ تبدو هذه البِنْيةُ مُشتّتةً غيرَ منطقيّةٍ مُخالِفةً لِلعادة.

ووَراءَ هذا الظّاهِرِ المُشتَّتِ، تُوجَدُ وَحْدةٌ قابلةٌ لِأَن نُحِسَّ بها أكثَرَ مِن أن تكونَ قابلةً لِأَن نُدرِكَها بعُقولِنا. ولا نَرى في أيِّ كتابٍ (هذه الوَحْدةَ المترائيةَ في عَيْنِ التّنوّع)، التي هي مِن جُمْلةِ أسْرارِ الجَمال والخِلابة في القُرآن، خاصّةً في تنوّعِ البِنْيةِ البَيانيّة. وهذه الوَحْدةُ تجعَلُ مَتْنَ القُرآنِ كأنّه بَدَأَ واكتمَلَ في لَحظةٍ واحدة. لِأَنّ هذا المَتْنَ لَيْسَ له بدايةٌ ووَسَطٌ ونهايةٌ. فمِن أيِّ موضعٍ في القُرآن بدَأتَ وقرأتَ، يمكنُ هذا الموضِعَ أن يكونَ نقطةَ ابتداءٍ على مُحيطِ دائرةٍ، ويمكنُ هذه النّقطةَ معَ قِراءةِ القُرآنِ كلّه أن تُعَدَّ نقطةَ انتهاءٍ أيضًا. فكُلُّ موضعٍ في مَتْنِ القُرآن يمكنُ في الوقتِ نفسِه أن يكونَ نقطةَ ابتداءٍ ونقطةَ انتهاء. وكلُّ إنسانٍ يَتْلُو القُرآنَ، الذي عُدّتِ (القِراءةُ) أظهَرَ سَبَبٍ لِتَسميتِهِ بهذا الاسْم، يَحِلُّ مِثْلَ النّبيِّ ﷺ في مَقامِ الوَحْي، ويغدو وَسيطًا يُنقَلُ كلامُ اللهِ بوَساطته إلى الآخَرين. وعلى هذا النّحو، معَ أنّ الوَحْيَ

نَزَلَ أوّلَ مَرّةٍ على النّبيّ ﷺ، يظلُّ يَنزِلُ على امتدادِ التّاريخ، وتتجدّدُ ظُروفُ نزولِهِ، ويُطابِقُ مُقتضَياتِ أحوالِ القارئينَ وأوقاتهم، عندَما يكونُ ممكنًا أن يُقرَأَ القُرآنُ مِن أيِّ موضعٍ وأن تقرأَهُ أنتَ مِن أيِّ موضعٍ. وبسَببِ تنوُّعِهِ وتقطُّعِهِ الظّاهر، يبدو غيرَ مترابطٍ ومتقطّعًا وبغَيْرِ معنى. وهذا التّشتُّتُ الظّاهِرُ على هذا النّحو يُوجِدُ لدى القارئ انطباعًا بأنّه لا يمكنُ أن يجدَ في القُرآنِ كتابًا ذا وَحْدَةٍ معنويّة، بسَبَبِ عَدَم انطباقه على حال القارئ، وبِسَببِ أنّه عليه أن يقرأَه مِن البداية إلى النّهاية مُرتَّبًا لكي يدركَ المعنى، وبسَبَبِ عَدَمِ الإحاطة بالمعنَى كلّه بقِراءةٍ واحدة.

وبحَسَبِ الموضِعِ الذي تَشْرَعُ بقراءته مِن القرآن وتُواصِلُ القراءةَ، تجدُه في كلّ مرّةٍ كتابًا جديدًا؛ ثمّ لِهذا السَّببِ لا يكونُ كتابًا واحِدًا، بل هو آلافُ الكُتُبِ في كتابٍ واحِدٍ، مَهْما قرأتَه لا يكتمل ولا تَصِل فيه إلى نهاية.

البِنْيةُ البَيانيّةُ الغريبةُ والمخالِفةُ لِلْمُعْتاد في القُرآن، ناشئةٌ عن مقتضَياتِ أحوالِ تنزُّلِهِ، أو على نحوٍ أكثَرَ دِقّةً، ناشئةٌ عن سِياقِ الوَضْعِ المنحَصِر بالفَرْد المتحكِّم في تنزُّله، الذي مِن غير الممكنِ تحقُّقُه الكامِلُ في علاقاتِ اللّغة التي يتداولُها البشَر. ولهذا السَّبَبِ، عندَما نَلْمَحُ استفادةً مِن معاني القرآن ومضموناته في صُورةِ تلميحٍ وتَضْمينٍ واضِحٍ وغيرِ واضِحٍ على نطاقٍ واسِعٍ في كلّ الأدَبِ الفارسيّ القديم، لا نرى انعكاسًا لِبَعضِ مَظاهرِ البِنْيةِ القُرآنيّة إلّا في أشعار أكثَرِ شُعَراءِ الفارسيّة إيغالًا في القُرآنِ ومفهوماتِ القُرآن ومَعارِفِهِ، وأقصِدُ هنا أشعارَ جلالِ الدّين الرّوميّ وحافِظِ الشّيرازيّ – وبِنُدْرةٍ – في غَزَليّاتِ فَريدِ الدّين العطّار.

ولا شَكَّ في أنّ الرّوميَّ وكثيرين جدًّا مِن العُلَماء والشّعراء، تَبَعًا لِلإجماع ولِغالِبِ النّصوص، لَيْسَ لديهم أدنى شَكٍّ في أنّ ترتيبَ السُّوَر ومواضِعَ الآياتِ

في السُّوَر إنّما كان بإرادة الله سُبْحانَه، ولم يكن ناشئًا عن أذواقِ جامِعي القُرآن بعْدَ النّبيّ ﷺ، مِثْلَما قال السُّيوطيُّ في شَرْح ذلك: «الإجماعُ والنّصوصُ المُترادفةُ على أنّ ترتيبَ الآياتِ توقيفيٌّ، لا شُبْهةَ في ذلك». وفي كثيرٍ مِن الرّواياتِ والنّصوص التي ذكَرَها السّيوطيُّ، أُشيرَ إلى أنّ مَواضِعَ الآياتِ في سُوَرِ القُرآن حُدِّدت بِناءً على وَحْي جِبْريلَ وبإشارةٍ مِن رَسولِ الله ﷺ، وليسَتْ مِن عَمَلِ جامِعي القُرآن وقَصْدِهم واختيارهم»[٨].

وقد استطاعَتِ البِنْيةُ البَيانيّةُ لِلْقُرآن، واستمرارُ نَضارته وأَلَقِهِ وتجدُّدِه في ثقافةِ الإسلامِ والمجتمع الإسلاميّ، أن تجعَلَه على تطاوُلِ الزّمانِ نَموذَجًا مُؤَمَّلًا ومُمتَنِعًا لِكُلّ الفُصَحاءِ وأربابِ اللَّسَنِ الذين كانوا يفكِّرونَ بِسُلْطانِ كلامِهم على النّفوس وخُلودِهِ عَبْرَ الآماد والأجيال.

* * *

(٨) السُّيوطيّ، جلال الدّين عبدالرّحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، انتشارات امير كبير، ج١، الصّفحات ٢٠٩-٢١٣ و... [الأصل].